المبحث الثالث

الإمام فخر الدين الرازي ومنهجه في التفسير

ترجمة فخر الدين الرازي:

هو الإمام فخر الدين: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي، التَّيْميُّ، البكري، الطبرستاني، الرازي، المعروف بابن خطيب الرّيّ.

(التيمي): نسبة إلى (تيْم) من قريش، التي ينتسب لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

و(البكري): لأنه من ذرية أبي بكر رضي الله عنه.

و(الطبرستاني): نسبة إلى إقليم طبرستان، الذي تقعُ فيه مدينة (الرّيّ).

و(الرازي): نسبة إلى مدينة (الري)، المدينة التي وُلد فيها، وهي مدينةٌ قديمةٌ تقع جنوب غرب طهران حالياً.

ولد في مدينة (الري) سنة ٥٤٤هـ ونشأ نشأةً علميةً في أحضان والده، وكان والده (ضياء الدين عمر) عالماً من كبار علماء الراي، وخطيباً فيها، اشتهر بأنه خطيبُ الري، واشتُهر فخر الدين بلقب: ابن خطيب الري.

نشأ فخرُ الدين فقيراً، وكان قنوعاً زاهداً، وقام بعدةِ رحلاتٍ في طلب العلم، وتتلمذ على علماء عصره، حتى صار عالماً من كبار العلماء.

كان رحمه الله فريدَ عصره، ومتكلمَ زمانه، نبغَ في كثير من العلوم، فكان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، والفقه وأصوله.

ولفخر الدين شهرةٌ كبيرة في عصره وبعده، وكان يعظ بالعربية والفارسية،

ويبكي ويُبكي مَنْ معه، واتصل بسلاطين وحكام المناطق، ووعظهم ونصحهم، وكانت صلتُه وثيقةً بالسلطان شهاب الدين الغُوري سلطان غزْنَة، كما كانت صلتُه وثيقةً بالسلطان خوارْزِمْ شاه سلطان هراة، وبقي عنده مكرَّماً إلى وفاته.

توفي فخر الدين الرازي في هراة عند السلطان خوارزم شاه، يوم الإثنين، الأول من أيام عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ، وعاش ثلاثاً وستين سنة.

وقيل: إن الكرَّاميّة ـ اتباعَ محمد بن كرَّام السجستاني، وهم فرقةٌ ضالةٌ في العقيدة يجسمون الله بجسم، ويشبهونه بخلقه ـ سقوه سماً فمات، لأنه كان شديداً عليهم.

واعتُبر الإمام الرازي مجدِّدَ القرن السادس، قال السيوطي في أرجوزته: «تحفة المهتدين بأخبار المجددين»:

والسادسُ الفخرُ الإمامُ الرازي ... والرافعيُّ مِثْلُهُ يوازي

كان الإمام الرازي مصلحاً، في الجانب الفكري والاجتماعي والأخلاقي، وكان يرى توثيقَ الصلة بالسلاطين، لوعظهم ونصحهم، وكانوا يأتونَ إلى بيته لسماع نصائحه، وكان جريئاً معهم.. أتاهُ السلطانُ الغوريُّ يوماً إلى منزله، فقال الرازي له: «أيها السلطان: لا سلطانك يبقى، ولا تلبيسُ الرازي يبقى!!» فبكى، وأبكى السلطان.

وجعل القرآن أساسَ طريقتِه ومنهجه في الإصلاح، وأراد ربط الناس بالقرآن، وكانت خطته في الإصلاح على أساس القرآن تقوم على أربعة أسس:

١ ـ وضعُ القرآن موضع الدراسة والبحث والتحليل، لأن طريقته أسمى من جميع الطرق الفلسفية والكلامية، ولذلك دعا الدارسين إلى الإقبال على القرآن للوقوف أمام الفلاسفة والماديين والملحدين.

٢ ـ اشتمالُ القرآن على مختلف العلوم والمعارف، مما جعله يسمو على كلِّ نتاجِ البشر.

٣ ـ دعوةُ أصحاب العلوم والثقافات الأخرى إلى الإقبال على القرآن،

وسوف يجدون فيه ما يريدون وزيادة.

٤ ـ إعادةُ الطمأنينة إلى القلوب، وبثُّ الثقة والأمل في النفوس، بالإقبال على القرآن، لأنَّ الناس كانوا يعيشون الخطر المغولي، وقد هجمَ المغول على خراسان واجتاحوها ودمروها بعد سنوات من وفاة الرازي.

قال عنه الصفدي: اجتمع للإمام الرازي خمسةُ أشياء: سعةُ العبارة في القدرة على الكلام، وصحةُ الذهن، والاطلاع الذي ما عليه مزيد، والحافظةُ المستوعبة، والذاكرة التي تعينه على ما يريد من تقرير الأدلة والبراهين...

وكان الإمامُ الرازي غزيرَ التأليف، حيثُ صنَّفَ العديد من الكتب والدراسات في مختلف الموضوعات، أوصلها بعضهم إلى أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة[١].

من أشهرها: تفسيره الكبير، والمحصول في أصول الفقه، وأساسُ التقديس في علم الكلام، وشرحُ أسماء الله الحسنى، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ومناقب الإمام الشافعي...

وقد صدرت عن الرازي وتفسيره عدةُ دراسات مطبوعة منها: (فخر الدين الرازي) للدكتور فتح الله خليف، و(فخر الدين الرازي) تمهيد لدراسة حياته ومؤلفاته) لجورج قنواتي، و(فخر الدين الرازي وآراؤه الفلسفية والكلامية) لمحمد صالح الزركان، و(الرازي من خلال تفسيره) لعبد المجيد المجدوب.

وأجود دراسةٍ عن الرازي وتفسيره كتاب (الرازي مفسراً) للدكتور محسن عبد الحميد، وهو رسالةٌ نالَ بها درجةَ الدكتوراه في التفسير سنة ١٩٧٢ من جامعة القاهرة.

وللإمام الرازي وصيةٌ قيمة نافعة، أملاها على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني في الحادي والعشرين من محرم سنة ٦٠٦هـ. وذلك لما مرض وشعر

---

(١) انظر أسماء مؤلفات الرازي في كتاب (الرازي مفسراً) للدكتور محسن عبد الحميد، ص٣٨ـ٤١.

بدنوِّ أجله، وقد عاش بعدها حوالي ثمانية أشهر.

ومما قاله في هذه الوصية النافعة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: يقولُ العبدُ الراجي رحمةَ ربه، الواثقُ بكرمِ مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو في آخرِ عهدِه بالدنيا، وأولِ عهدِه بالآخرة، وهو الوقتُ الذي يلينُ فيه كلُّ قاسٍ، ويتوجَّهُ إلى مولاه كل آبق:

إني أحمدُ الله تعالى بالمحامد، التي ذكرها أعظمُ ملائكته، في أشرفِ أوقاتِ معارجهم، ونطق بهاأعظمُ أنبيائه، في أكمل أوقاتِ مشاهدتهم.. وأحمدُه بالمحامدِ التي تستحقها ألوهيتُه، ويستوجبُها لكمالِ الموهبة، عرفْتُها أم لم أعرفها.. وأصلّي على الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين.

ثم أقولُ بعد ذلك: اعلموا إخواني في الدين وفي طلب اليقين ـ أنَّ الناس يقولون: الإنسانُ إذا ماتَ انقطعَ تعلُّقُه عن الخلق.. وهذا العامُّ مخصوصٌ من وجهين:

الأول: أنه إنْ بقيَ عملٌ صالح صارَ ذلك سبباً للدعاء، والدعاءُ له أثرٌ عند الله.

والثاني: ما يتعلقُ بمصالحِ الأطفال والأولاد والعورات، وأداءِ المظالم والجنايات...

واعلموا أنني كنتُ رجلاً محباً للعلم، فكنتُ أكتبُ في كلِّ شيء شيئاً، لا أقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقاً أو باطلاً، غثاً أو سميناً!!.

إلاَّ أنَّ الذي نظرْتُه في الكتبِ المعتبرة لي: إنَّ هذا العالَمَ المحسوس تحت تدبير مدبِّر مُنَزَّهٌ عن مماثلة المتميزات والأعراض، وموصوفٌ بكمالِ القدرةِ والعلم والرحمة..

ولقد اختبرتُ الطرقَ الكلامية، فما رأيتُ فائدةً تساوي الفائدةَ التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليمِ العظمةِ والجلالِ بالكلية لله تعالى، ويمنعُ

عن التعمق في إيرادِ المعارضات والمتناقضات . . وما ذاك إلاّ للعلم بأنَّ العقولَ البشرية تتلاشى وتضمحلُّ في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية . .

ولهذا أقول: كلُّ ما ثبتَ بالدلائلِ الظاهرة من وجوب وجودِه ووحدتِه وبراءته عن الشركاء في القدمِ والأزلية والتدبير والفاعلية، فذاكَ الذي أقولُ به، وألقى الله عليه . .

وأمّا ما انتهى الأمرُ فيه إلى الدقةِ والغموض، فكلُّ ما ورد في القرآن، والأخبارِ الصحيحةِ المتَّفقِ عليها بين الأئمةِ المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو.

والذي لم يكن كذلك أقول: يا إلـٰهَ العالمين: إني أرى الخلق مُطبقينَ على أنك أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الراحمين، فلك ما مَرَّ به قلمي، أو خطرَ ببالي . . . وأستشهدُ علْمك وأقولَ: إنْ علمتَ منّي أني أردتُ تحقيق باطلٍ أو إبطالَ حق، فافعل بي ما أنا أهلُه، وإنْ علمتَ مني أني ما سعيت إلاّ في تقرير ما اعتقدتُ أنه الحق، وتصورتُ أنه الصدق، فلتكُنْ رحمتُك مع قصدي لا مع حاصلي . . فذاكَ جهدُ المقلِّ، وأنتَ أكرمُ منْ أنْ تُضايقَ الضعيف الواقعَ في الزلة، فأغثْني، وارحمني، واسترْ زلَّتي، وامحُ حوْبتي . . يا منْ لا يزيدُ ملكَه عرفانُ العارفين، ولا ينتقصُ بخطأ المجرمين . .

وأقول: ديني متابعةُ سنةِ محمدٍ سيد المرسلين، وكتابي هو القرآنُ العظيم، وتعويلي في طلبِ الدينِ عليهما . .

اللهمَّ يا سامعَ الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مُقيلَ العثرات، ويا راحمَ العبرات، ويا قيومَ المحدَثات والممكنات: أنا كنتُ حَسَنَ الظنِّ بك، عظيمَ الرجاءِ في رحمتكَ، وأنتَ قلْتَ «أنا عند ظن عبدي بي». وأنت قلت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. وأنت قلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فهبْ أني ما جئتُ بشيء، فأنتَ الغنيُّ الكريم، وأنا المحتاج اللئيم . .

وأعلمُ أنه ليس لي أحدٌ سواك، ولا أجدُ محسِناً سواك، وأنا معترفٌ بالزلةِ

والقصور، والعيب والفتور، فلا تُخيِّب رجائي، ولا تردّ دعائي، واجعلني آمناً من عقابك قبل الموت وعند الموت وبعد الموت، وسَهِّل عليَّ سكراتِ الموت، وخفِّفْ عليّ نزول الموت، ولا تضيِّقْ عليَّ بسببِ الآلام والأسقام، فأنتَ أرحمُ الراحمين..

وأما الكتب العلمية التي صنَّفتُها، واستكثرتُ من إيرادِ السؤالاتِ على المتقدمين فيها، فمنْ نظرَ في شيء منها، فإنْ طابَتْ له تلك السؤالات، فيذكُرْني في صالحِ دعائه، على سبيل التفضل والإنعام، وإلاّ فلْيحذف القولَ السيِّئ..

فإنّي ما أردتُ إلاّ تكثير البحث، وتشحيذَ الخاطر.. والاعتمادُ في الكلِّ على الله..

وأمرتُ كلَّ تلامذتي، وكلَّ منْ لي عليه حقّ، أني إذا متُّ يبالغونَ في إخفاءِ موتي، ولا يُخبرونَ أحداً به، ويكفِّنونني، ويدْفنونني على شرطِ الشرع، ويحْملونني إلى الجبلِ المصاقبِ لقرية (مزداخان)، ويدفنونني هناك.

.. وإذا وضعوني في اللَّحد قرؤوا عليَّ ما قدروا عليه من آيات القرآن، ثم ينثرون التراب عليَّ، وبعدَ الإتمام يقولون: يا كريم جاءكَ الفقيرُ المحتاج، فأحسنْ إليه، واعْطِفْ عليه، فأنتَ أكرمُ الأكرمين، وأرحم الراحمين...»[1].

وكان الإمام الرازي ينظمُ الجيِّد، ومن ذلك قوله:

ولا أرْمُقُ الدُّنيا بعينِ كرامةٍ ... ولا أتَوَقَّىٰ سُوءَها واختلالَها
وذاكَ لأنّي عارفٌ بفنائها ... ومُستيقنٌ ترْحالها وانْحلالها
أرومُ أموراً يصغرُ الدهرُ عندها ... وتستعظمُ الأفلاكَ فيَّ وصالَها

وعاتب أهلَ هراة ـ لما أساؤوا له مرة ـ قائلاً:

المرْءُ ما دامَ حيّاً يُستهانُ به ... ويعْظمُ الرزْءُ فيه حين يُفتَقَدُ

---

(١) انظر وصيته كاملة في (الرازي مفسراً) ص١٦ ـ ١٨؛ ومقدمة تفسير الرازي: ١/ ل، م، ن.

وبعد ما خاضَ الإمام الرازي كثيراً في علم الكلام، وألَّفَ فيه كُتُباً كثيرة، تراجعَ عن ذلك في آخر أيامه، ورجعَ إلى طريقةِ السلفِ الصالح في العقيدة، واعتمد على القرآن والسنةِ في مسائل العقيدة، وأعلنَ على ندمهِ عن الاشتغالِ بعلمِ الكلام.

قال: لقد اختبرتُ الطرق الكلامية والمناهجَ الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً، ولا تشفي عليلاً..

ورأيتُ أصحّ الطرق طريقةَ القرآن.. أقرأ في التنزيهِ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وأقرأ في الإثبات قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

واقرأ في أنَّ الكلَّ من عندِ الله قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء ٧٨].

وأقولُ من صميم القلب ومن داخل الروح: إني مُقرٌّ بأنَّ كلّ ما هو الأكملُ الأفضلُ الأعظمُ الأجلُّ فهو لكَ يارب، وكلُّ ما هو عيبٌ ونقصٌ فأنتَ منزهٌ عنه!».

وقال القطبُ الطوغاني: سمعتُ فخر الدين الرازي أكثر من مرة يقول: يا ليتني لم أشتغلْ بعلم الكلام! ويبكي..[1].

ومن روائع ما قال في ذلك:

نِهايَةُ إقْدامِ العقولِ عِقالُ ... وأكثرُ سعي العالمينَ ضلالُ
وأرْواحُنا في وحْشةٍ منْ جُسومِنا ... وحاصلُ دُنْيانا أذىً ووبالُ

---

(١) مقدمة مصححي تفسير الرازي: ١/ى.